التأثير والتأثر الصوتي بين القدماء و المحدثين

الدكتور: عبد الكريم بورنان
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الحاج لخضر – باتنة

ملخّــص:

من الإشكالات الصوتية التي اهتمّ بها البحث الصوتي القديم والحديث على السواء ما يسمى بالتأثير والتأثر بين الأصوات في بنية الصورة الصوتية؛ كالمماثلة والمخالفة، وهما يهدفان إلى تحقيق بعض أنواع الانسجام و التوافق الصوتي بين صوتين من مخرج واحد ومختلفين في بعض الصفات أو متقاربين إما في المخرج أو الصفات ومتجاورين في نسق صوتي ما .

Résumé:

L'influence et l'assimilation entre les sonorités constituent une problématique acoustique importante qui relève des études historiques de la langue arabe en rapport avec les changements acoustiques de la structure de l'image sonore, comme l'isotopie et l'altérité. Ces deux phénomènes permettent la réalisation de la cohérence et de la cohésion entre deux sonorités émanant d'un seul point d'articulation dans une perspective de différenciation et d'assimilation à l'intérieur d'un système acoustique.

Abstract :

Influence and assimilation between acoustic sounds are an important issue which falls within the historical studies of arab language related to accrostic changes in the structure of the snote image , like : isotopie and alterite . This two phenomena permit the realization of coherence and cohesion between two sounds from a single point of articulation in a perspective of differentiation and assimilation within an acoustic system.

يعد التأثير والتأثر بين الأصوات من الإشكاليات الصوتية التي تنطوي تحت ظاهرة صوتية تسمى التغيرات الصوتية لبنية الصورة الصوتية؛ كالمماثلة والمخالفة، وهما ينزعان إلى نوع من الانسجام والتوافق الصوتي بين صوتين من مخرج واحد ومختلفين في بعض الصفات أو متقاربين إما في المخرج أو الصفات ومتجاورين في نسق صوتي ما، لأجل التيسير في النطق بأيسر الطرق الصوتية والعضوية، وهما من المظاهر الصوتية الشائعة في كل اللغات، غير أن اللغات تختلف في نسبة هذا التأثر ونوعه، كما أن نسبته متفاوتة بين الأصوات في جل لغات العالم.

المماثلة أو الإبدال القياســـي: Assimilation

1- المماثلة لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور (ت 711 هــ) في مادة (م، ث، ل): (هذا مِثْلُه ومَثَلُه كما تقول: شبه وشَبَهَهُ، قال ابن بري: وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين... والمثل: الشبه، تقول: مِثْلٌ ومَثَلٌ، وشِبْهٌ وشَبَهٌ، بمعنى واحد)[1]

2 – المماثلة اصطلاحا: لم تحدد مصادر الدراسات اللغوية العربية القديمة تعريفها الاصطلاحي تحديدا يفي بالغرض المنوط بها، فابن جني

(ت 392 هـــ) جاء بما يقارب تعريفها الاصطلاحي وذلك في سياق حديثه عن عدم انسجام المهموس المستفل مع المجهور المستعلي في صيغة افتعل وما تصرف منها فقال: (فكرهوا ظهور التاء وهي مهموسة غير مستعلية مع الضاد والطاء وهما مجهوران مستعليان، فأرادوا الإدغام فأبدلوا الزائد وهو صوت تاء افتعل للأصل الذي قبله ــ اضطرب، اضترب ــ ،،،،،، فأرادوا أن يكون عملهم من وجه واحد)[2]؛ أي تحقيق الانسجام والتقارب الصوتي بين حروف الاستعلاء ، في حين جاء تعريفها في البحث الصوتي الحديث كالآتـــي:

– عرفها الدكتور أحمد مختار عمر بقوله: (تحول الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة إما تماثلاً جزئياً أو كلياً) [3].

فالفونيمات إما أن تكون من الصوائت أو الصوامت ذات المخرج الواحد أو المتقاربة أو المتجاورة فيه ، أو بين الصفات القوية لا الضعيفة .

وعرفعها بروسنهان Brosnahan بقوله: (التعديلات التكيفية للصوت حين مجاورته للأصوات الأخرى) [4].

وعرفها دانيال جونز Daniel Jones تعريفا دقيقا يحتوي على كل جزئياتها الصوتية قائلا: (عملية إحلال صوت محل صوت آخر تحت تأثير صوت ثالث قريب منه في الكلمة أو الجملة، ويمكنها أن تتسع لتشمل تفاعل صوتين متواليين ينتج عنهما صوت واحد مختلف عنهما) [5].

فتعريفه ينقسم إلى فرعين أحدهما تأثر الأصوات فيما بينها وهذا ما قال به البحث العربي قديمه وحديثه، في حين تحدث في شطره الثاني عن عملية تفاعل وتمازج صوتي بين الأصوات المتوالية في المنطوق اللغوي الذي ينتج عنه صوت مختلف عنهما يسمى الصوت المزدوج النطق الذي يشبه في

هيئته النطقية الإمالة أو الإشمام الصائتي أو الصامتي نحو: التصدير: التزدير وفي الفصد: الفزد. وفي أصدر:أزدر – كما أشار إليها سيبويه فيما يأتي – فالمماثلة في البحث اللغوي العربي القديم جاءت في سياق حديثهم عن الإدغام غير أنهم لم يصطلحوا عليها هذا المصطلح، فسماها سيبويه (ت 180ه) المضارعة وذلك في أثناء حديثه عن التجاذب الحاصل بين الحروف فقال: (هذا باب الحرف الذي يضارع بـــه حـــرف آخـــر مـــن موضعه والحرف الذي يضارع ذلك الحرف وليس من موضعه) [6]

فالمماثلة إما أن تكون بين صوتيين مختلفين في المخرج، وإما بين صوتيين متقاربين مخرجا وصفة ، وإما أن تكون عن طريق الإبدال الصوتي، في نحو قوله: (الصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال مثل: مصْدر أصْدر، التصْدير)[7]؛ إذ تأثرت الدال بالصاد المجاورة لها، وهذا يستوجب إدغام الصاد في الدال أو إبدال الدال بحرف يناسب الصاد في صفة الإطباق كالطاء، وهذا غير ممكن حسب رأي سيبويه، وإنما يفسر ما حدث في هذه الأمثلة بأنه مضارعة الصاد بالزاي أي تقريبها منها ؛ لأن الزاي مجهور كالدال، لذلك فأقصى درجات التأثر الحاصل بين المتجاورين عند سيبويه هو الإدغام.

– ويطلق عليه أحيانا أخرى مصطلح الإدغام: (الإدغام يدخل فيه الأول في الآخر حتى يصير هو والآخر من موضع واحد)[8].

وفي مواضع أخرى يسميها التابع وبخاصة فيما نـــقله من كلام العرب الذي أبدلوا فيه الصاد زايا بسبب الدال المجهور والصاد المهموس حتى يكون هناك نوع من الانسجام الصوتي في بنية الصورة الصوتية فقال: (فجعلوا الأول تابعا للآخر... وسمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زايا خالصة،

كما جـــــعلوا الأطباق ذاهبا في الإدغام وذلك قولك في التصدير: التزدير وفي الفصد:الفزد. وفي أصدر:أزدر).[9]

ويعلل سيبويه إبدال الصاد زايا بقوله: (وإنما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها أن يكون عملهم من وجه واحد، وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد؛ إذ لم يصلوا إلى الإدغام).[10]

فالصلة قوية بين المماثلة والإدغام لاجتماعهما في حالة التماثل الكلي أو التام، غير أن الإدغام يعد أحد أشكال المماثلة، بل أنه أقيس أشكالها في العربية، لذلك ركز عليه البحث اللغوي القديم لما يحمل من خصائص صوتية يشترك فيها مع مظاهر صوتية مختلفة .

وهذا مما يدل على أن ابن جني (392 هـــ) جعل من الإدغام نوعا من التقارب الصوتي بين صوتيين ينزعان إلى الانسجام والتآلف والتناسق اللفظي سواء أكان ذلك في الإدغام بنوعية الكبير والصغير فقال: (إن الإدغام الـــمألوف المعتاد إنما هو تقريب صوت من صوت). [11]

ومنه نستشف أن البحث اللغوي العربي القديم فطن إلى إشكالية التأثير والتأثر الحاصل بين أصوات اللغة العربية فجاءت نتائجهم دقيقة؛ لأنه اعتمد لغة المشافهة والتحسس وذوق الحـــروف والملاحظة الذاتـــية التي في الحقيقة مكنت الباحث الصوتي العربي من التعرف على فكرة البحث الصوتي العربي القديم وما يحتويه من خصائص علمية أصبحت الآن مؤيدة من قبل البحث المخبري الحديث.

فقربه من المماثلة جعل الباحث يضطرب في قراءته للمصادر اللغوية، مما أدى إلى فهم غير دقيق و صعوبة في إجراء المطابقة بين الدراسات القديمة وما يقابلها من مصطلحات حديثة؛ إذ لم نتمكن مـــن الفصل بين

المصطلحين متسائلين : هل هما من المعنى نفسه؟ أم لكل منهما خصائص؟ ومن الأشمل المماثلة أم الإدغام؟.

ولكي تكون الدراسة أكثر وضوحا وبعيدة عن الآراء المضطربة، نقف عند مصطلح التأثير الصوتي مبرزين تعريفه العلمي الدقيق وخصـــائصه البارزة وفق الدرس الصوتي الحديث.

لقد أثبتت الدراسات الصوتية الحديثة وجود تأثر حاصل بين الأصوات المتجاورة في الكلمة الواحدة وذلك بهدف تحقيق الانسجام الصوتي، فحين ينطق المرء لغته نطقا طبيعيا لا تكلف فيه، نلحظ أن أصوات الكلمة الواحدة قد يؤثر بعضها في بعض، كما تتأثر الكلمات المساقة في سياق معين ببعضها بعض في النطق المتواصل لا المنقطع كما قال د/ إبراهيم أنيس: (تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض في المتصل من الكلام ....)[12].

فعلى هذا الأساس فالمماثلة أو المشابهة الصوتية في الدرس الصوتي الحديث كما هو في الدرس الصوتي القديم تضم بين جنبيها الصوائت والصوامت، وتهدف إلى تقريب الأصوات المتنافرة بعضها من بعض ليزدادوا مع مجاورتهم قربهم في الصفات والمخارج[13]، من أجل تحقيق التوافق والانسجام بينها[14].

فلذلك عُرِّف الانسجام الصوتي vowel harmony أو Harmonie Voyelles: على (أنه ظاهرة صوتية تحدث في مقاطع الكلمة الواحدة والمقاطع المتجاورة، سعيا لتحقيق التوافق الحركي).[15]

واصطلح عليها برجستراسر (التغيرات الاتفاقية) [16].

وقسمها د/ محمود فهمي حجازي إلى قسمين أساسين على وفق التغيرات الصوتية السياقية المشروطة وغير المشروطة؛ فالأولى تغيرات صوتية

مطردة في أصوات المستوى اللغوي الواحد، ومعنىاه أنها تغيرات غير مشروطة بسياق صوتي معين، وإنما هي عامة في المستوى اللغوي الواحد؛ كإبدال الأصوات ذات العلاقة الصوتية دون أن يتأثر بعضها ببعض في مثل إبدال اللام نون أو غير ذلك، في حين أن النوع الثاني من التغيرات الصوتية يحددها السياق؛ لذا فهي تغيرات صوتية مشروطة، وليست بتغيرات تاريخية، بل تغيرات تحددها طبيعة الأصوات المحيطة بالصوت موضع التغيير؛ كإبدال الأصوات الناتج عن التأثر والتأثير الصوتي الذي يهدف إلى التوافق والانسجام في بنية الصورة الصوتية الواحدة. (17)

وعليه اختلفت مخارج الأصوات اللغوية وصفاتها، وبالتالي قد يجتمع صوتان من مخرج واحد في الصورة الصوتية الواحدة، أو من مخرجين متقاربين ولها صفات واحدة أو مختلفين في الصفات، فيحاول كل واحد منها أن يؤثر في الثاني ليجذبه إليه ويجعله مثيلا له في الصفات أو في بعضها.

أنواع المماثلة بين البحث الصوتي القديم والحديث:

كما سبق ذكره أن البحث اللغوي القديم لم يفصل في أنواع المماثلة، بل جاء بحثهم في هذه الإشكالية يتسم بالتداخل بين المستوى الصوتي والصرفي، وعليه فالبحث الصوتي الحديث – بعد تأثره بالبحث الصوتي الغربي – تمكن من الفصل بينهما في الشكل والمضمون مع المحافظة على الصلة الوثيقة بينهما في دراسة البنى اللفظية للعربية فلذلك قسموا المماثلة إلى قسمين هما:

أولا: المماثلة الصوتية الاتباعية المتوالية التدريجية أو التقدمية أو المقبلة التي تسمى أيضا بالتأثر الصوتي التقدمي أو الإتباعي والموسوم بالفرنسية Progressive وفيها يتأثر الصامت الثاني بالأول(18)، وهذا من حيث الوظيفة الصوتية للمماثلة، أما من حيث المصطلح فقد سماها ابن جني

بالإدغام الأصغر الذي يتقارب فيه حرف من حرف آخر وإدناؤه منه من غير إدغام[19]، واصطلح عليها برجستراسر التشابه المقبل الكلي أو التأثر المقبل الكلي[20].

ففي ضوء ما سبق يمكن تفسيرها من خلال ما ورد من أمثلة في كتب التراث اللغوي العربي عامة والصرفي خاصة، على أنها تشمل مظاهر صرفية وصوتية متعددة، سواء أكان ذلك على مستوى الصوائت أو الصوامت التي يتأثر بعضها ببعض لتحقيق الانسجام والتلاؤم الصوتي لبنية المفردة العربية.

المماثلة في الصوائت القصيرة والطويلة:

– إمالة الفتحة كسرة والألف ياء : هي نوع من التأثر الصوتي التقدمي الذي يهدف إلى نوع من النطق المزدوج النسبي بين حركتين متجاورتين لا فاصل بينهما، في نحو ما ألفناه في قراءة القـــرآن الكريم على رواية ورش: " عيسى" و" موسى " و " الهدى " و " مثواه " و " يرضى " وغيرها.

فالأصل في النطق الفتح ، ولكن تنطق الفتحة بين الفتح والكسر دون أن يفصل بينهما فاصل صائتي أو صامتي وهنا تكون الكسرة جاذبة للفتحة، فنتج عن هذا التجاذب نطق مزدوج نسبي بين حركتين.

وإما بفاصل مثلما مثل لها سيبويه بجملة من الكلمات: عماد، سربال، شملال، كلاب[21]، فحين نميل ألف "سربال " يكون الألف قد تأثر بكسرة سابقة عليه، فأميلت وإن كان بينه وبين الكسرة حرف ساكن ، ذلك لأن الحرف الساكن عند سيبويه: ليس بحاجز قوي[22]، وهذا التأثر يسمى التأثر التقدمي.

المماثلة في الصوامت:

1 ــ تاء الافتعال وقبلها أحد حروف الإطباق – الصاد والضاد والطاء والظاء – في نحو: قلب تاء افتعل وما تصرف منها ولا ينطق بها على الأصل البتة ، بشرط أن تكون فاء الفعل أحد حروف الإطباق[23]، فالتاء مبدلة في نحو: " اصطبر يصطرب واضطرب يضطرب واصطهر مصطهر " طاء لتأثرها بالصاد قبلها بدون إدغام ولا فاصل بينهما، أما" اطَّلع " فقد أبدلت التاء طاء ثم أدغمت الطاء في الطاء فالأصل التائي فيه كلفة عضوية معتبرة؛ لأن التاء مستفلة منفتحة وحروف الإطباق مستعلية مطبقة، فالانتقال في النطق من الاستفال إلى الاستعلاء والإطباق مكلف عضويا، في حين النطق بالمطبق مرة واحدة يقلل من الجهد العضلي، على الرغم من أن المطبق يستغرق مدة زمنية أكبر وجهدا عضليا أوفر.

2– تاء الافتعال وقبلها زايا بشرط أن تكون الزاي المجهور متقدمة على التاء المهموسة فتبدل هذه الأخيرة دالا مجهور لتنسجم مع الزاي في الجهر في نحو: ازدجر مزدجر وأصلها ازتجر مزتجر. [24]

3– تاء الافتعال وقبلها ذالا بشرط تقدم الذال عنها في نحو ما أشار إليه علماء الصرف واللغة متمثلا في المثال التالي[25]: ادَّكر التي أصلها: اذتكر، فأبدلت التاء المهموسة دالا مجهور فأصبحت: اذدكر فأدغم المتقاربان في المخرج والمتحدان في بعض الصفات الذال والدال، لأجل تحقيق الانسجام الصوتي بين المجهورات.

ثانيـــا: المماثلة الصوتية التخلفية أو المدبرة أو التأثر الصوتي التخلفي أو المدبر والمصطلح عليها بالفرنسية **REGRESSIVE:**

وفيها يتأثر الصامت الأول بالثاني من حيث الوظيفة الصوتية كما جاء في البحث الصوتي الحديث[26]، في حين اُصطلح عليها في الدرس الصوتي

القديم بالتابع[27] والتقريب الصوتي[28]، وسماها المحدثون التخلفي أو التهيئ[29] والتشابه المدبر[30] والتأثر المدبر[31]. وغيرها من التسميات.

- **المماثلة التخلفية والصوائت** : تتأثر الصوائت فيما بينها قصيرة كانت أم طويلة تأثرا تخلفيا أو مدبرا لعلة الانسجام والخفة النطقية، فقد جاء في كتب اللغة والصرف أمثلة كثيرة تحت أبواب صوتية كإمالة ألف "عالم" التي قربت فيها الألف من كسرة اللام اللاحقة بها؛ إذ تأثر الصائت الطويل الألف بالصائت القصير الكسرة الموالية لها مباشرة، من أجل نطق مزدوج نسبي بين حركتين من جنس واحد مختلفتين طولا وزمنا، وهذا هو التأثر الرجعي.

ومن أمثلتها فيما وقع بين الأصوات من جذب وتجاذب الذي استثقله بعض أهل العربية وبخاصة فيما تجاور من أصوات متجاورة في المخارج أو متقاربة فيما بينها، فيؤدي ذلك في بعض الأحيان إلى الانتقال بين حركتين مختلفتين لتحقيق المماثلة الصوتية بينها تحقيقا تتابعيا، فيجعل الحركة الأولى بلفظ الحركة الثانية لأجل التخفيف ذلك الثقل على اللسان، في نحو قول العرب: رِحِمٌ بدلا من رَحِمٌ و مِغِيرة بدلا من مُغيرة و عِصِيٌّ بدلا من عُصِيٌّ، وهذا من أجل اتباع حركات المقطع الأولى المفتوح القصير لكل من الراء المفتوح والميم المكسور والعين المضموم حركات المقطع الثاني أيضا المفتوح القصير المكسور في كل حالاته، فيكون العمل العضوي للجهاز الصوتي من جهة واحدة وبأقل جهد عضوي.

- **المماثلة التخلفية والصوامت:**

1 ــ إبدال الصاد زايا: الصوامت تتأثر فيما بينها تأثرا تخلفيا لأجل الخفة النطقية والانسجام الصوتي، فهذا النوع من التأثر يقع عادة بين المتقارب من الصوامت في المخرج أو الصفات فإبدال الصاد زايا خالصة له شروطه

الصوتية؛ منها أن تكون الصاد متقدمة وساكنة عن الدال المفتوحة المؤثرة فيها ، وهذا لأجل التقليل من الجهد العضلي فأبدلوا الثقيل بالخفيف ليحققوا انسجاما بين مجهورين الزاي والدال في بعض اللهجات العربية، قال ابن جني: (ومنه تقريب الحرف من الحرف نحو قولهم: مصْدر: مزْدَر، فلما سكنت الصاد فضعفت به وجاورت الصاد وهي مهموسة الدال وهي مجهورة، وقربت بأن أشمت من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر)[32].

وهي دعوة علمية تبين أن بعض اللهجات العربية كانت تميل في نطقها إلى السهولة واليسر، متخذة سبيل النطق النسبي المزدوج بين صائتين من مخرج واحد، فجاء نطقهم بين الصاد الزاي وهو ما يسمى بالإشمام الصوتي الذي وقع فيه التأثر الرجعي أو المدبر.

2 – **إبدال السين صـــادا:** أبدلت السين صادا في بعض اللهجات العربية إبدالا مطردا بشرط أن تكون متقدمة عن الصوائت المستعلية والمطبقة كالطاء والمستعلية فقط كالقاف والغين والخاء في ما جاءت به مصادر اللغة العربية: صقت وسقت التي أبدلوا فيها السين المستفل صادا إبدالا صوتيا مطردا؛ لأن الصاد تشبه القاف في الاستعلاء، وهذا من أجل تحقيق توازن عضوي صوتي يكون العمل النطقي فيه من جهة واحدة، هي جهة الاستعلاء.

خلاصة ما توصل إليه هذا الكلام العلمي أن أصوات الصفير بمستفلها ومنفتحها ومستعليها ومطبقها تتبادل فيما بينها وفق قانون التأثر الصوتي التخلفي، الذي تحدده قوانين صوتية فسيولوجية بالدرجة الأولى وصوتية صرفية دلالية بالدرجة الثانية، والدافع إلى هذا الإبدال يكمن في الانسجام الصوتي للصورة الصوتية والنطق بها بأقل جهد عضلي.

والتأثر الصوتي التخلفي لا يقتصر على الصوامت الصفيرية دون غيرها بل يمكن وقوعه في صوائت أخرى كالخاء والغين وغيرهما من الصوائت، ولا يكون مقتصرا على الفصيح من الكلام بل وجدت آثاره في اللهجات القديمة كلهجة الأندلس اللهجات المعاصرة على اختلافها.

- **المخالفـــة** Dissimilation:

من التطورات التي تعرض أحيانا للأصوات اللغوية ما يمكن تسميته بالمخالفة، أو التغاير وهو فرع من فروع القانون الصوتي الذي يسير باتجاه معاكس من قانون المماثلة، الذي يهدف إلى تقريب الأصوات المتباعدة في سلسلة الكلام.

والمخالفة من المواضيع التي لاقت اهتمام الدارسين القدماء والمحدثين، واحتلت مكانا رئيسيا في الدرس الصوتي، عقدت حولها الكثير من التحاليل والشروح.

وأقدم من عرّف هذه الظاهرة الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175ه) الذي شبه اجتماع المثلين بمشي المقيد ؛ لأنه يرفع رجله ويضعها في موضعها، أو قريب منه؛ لأن القيد عن الانبعاث وامتداد رجله ويضعها في موضعها، أو قريب منه؛ لأن القيد يمنعه عن الانبعاث، وامتداد الخطورة، لذلك عده مكروها. (33)

وعقد سيبويه (ت180ه) بابا أسماه: (ما شذ فأبدل مكان اللام الياء، لكراهية التضعيف وليس بمطرد مثل قول العرب: تسريت وتظنيت وتقصيت من القصة وأمليت بدل أمللت)(34).

ومن أمثلة ما نقله عن كلام العرب قوله: دهدهت، فدهدهت بمنزلة دحرجت، ولكنه أبدل من الهاء شبهها بها، وإنما في الخفاء نحوها فأبدلت من الياء في هذه.[35]

وجعل الكسائي (ت 189ه) بعض امثلتها لحنا وذلك في أثناء حديثه عن لحن العامة في الزيادة فقال:

أُتْرجَّ وإجَّانة، وإجَّاص، هذه أحرف بإسقاط النون.[36]

والمخالفة عند أبي سكيت (ت244ه) تقابل مصطلح المضاعف فقال: (المضاعف التي تقلب إلى ياء، فقال: قال أبو عبيدة: العرب تقلب حروف المضاعفة إلى الياء فيقولون: تظنيت، وإنما هو تظننت)[37].

وردها أبو العباس المبرد (ت 285 هـــ) إلى نوع من الثقل الناتج عن تضعيف المعتل الآخر فقال: (وأعْلم أَنَّ التَّضعيف مستثقل، وأنَّ رَفْعَ اللسان عنهُ مرةً واحدةً، ثم العودة إليه ليس كرفع اللسان عنه وعن الحرف الذي من مخرجه، ولا فصل بينهما فلذلك وجب، وقوم من العرب إذا وقع التضعيف أبدلوا الياء من الثاني لئلا يلتقي حرفان من جنس واحد..... وَالدَّلِيل على أَنَّ هَذَا إِنَّما أُبدل لاستثقال التَّضْعِيف قولُك دِينَار وقيراط والأَصل دِنَّار وقِرَّاط فأَبدلت الياءَ للكسرة فلمّا فرَّقت بَين المضاعفين رَجَعَ الأَصل فَقلت دَنَانِير وقراريط وقُرَيْرِيط) [38].

وهي عند أبي علي القالي (ت 350 هـــ) نوع من الإتباع بالتضعيف فقال: (وأن تكون النون بدلا من حرف التضعيف؛ لأن حروف التضعيف تبدل منها الياء مثل: تظنيت وتقضيت، فلما كانت النون من حروف الزيادة وكانت من حروف البدل أبدلت من السين؛ إذ مذهبهم الاتباع أن تكون أواخر الكلم على لفظ واحد مثل القوافي والسجع) [39].

في حين بيّن الزبيدي (ت 379ه) كيفية تجنب توالي الأمثال في لهجة الأندلس فقال: (يقولون: كرناسة للدفتر، ويجعلونها على كرانس... وذلك خطأ، و الصواب: كراسة، وكراريس، وقد كرست الدفتر). [40]

وتبع ابن جني (ت 392ه) المبرد فيما ذهب إليه فقال: (باب في قلب لفظ بالصنعة و التلطف لا بالا قدام والتعجرف فقوله: " تقضى البازي إذا البازي كسر "

هو في الأصل من تركيب " قضض " ثم أحاله ما عرض من استثقال تكريره إلى لفظ (ق- ض- ي). [41]

غير أن ابن يعيش (ت 643 ه) جعل ظاهرة المخالفة شكلا من أشكال الإعلال المفضي للتخفيف اللفظي تفاديا لاجتماع المتجانسين فقال: (أعلم أن النحويين قد نظموا هذا النوع من التغيير في سلك الإدغام وسموه به وإن لم يكن فيه إدغام، إنما هو من الإعلال للتخفيف كراهية اجتماع المتجانسين...). [42]

في حين المخالفة في الدرس الصوتي الحديث أخذت بعدا شاملا ومتسعا على ما كانت عليه في البحث الصوتي القديم، ولكن على ضوء ما قدمه البحث الصوتي القديم من أراء وأهداف يكاد يتفق الطرفان عليها.

فمن المحدثين الذين أشاروا لظاهرة المخالفة، فندريس حيث يقول: (ينحصر التخالف وهو المسلك المضاد للتشابه في أن يعمل المتكلم حركة نطقية مرة واحدة، وكان من حقها أن تعمل مرتين). [43]

هذا ما يوحي أن المخالفة – كما قال القدماء – تهدف إلى نوع من التقليل من الجد العضلي في أثناء عملية التلفظ؛ لأنها تعتمد على المنطوق من اللغة دون المكتوب.

وتأخذ الظاهرة قدرا كبيرا من التحليل و الوضوح عند الدكتور رمضان عبد التواب القائل في شأنها:

(تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض عند النطق بها في الكلمات و الجمل فتتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها لكي تتفق في المخرج أو في الصفة مع الأصوات الأخرى المحيطة بها في الكلام فيحدث عن ذلك نوع من التوافق والانسجام بين الأصوات المتنافرة في المخارج أو في الصفات).[44]

والمخالفة عنده تكون بأحد أصوات اللين الطويلة، أو بصوت من الأصوات المتوسطة أو المائعة المعروف بمصطلح Liquid، وهي اللام، و الميم والنون و الراء. [45]

ويجعلها د/ عبد العزيز مطر في المضعف من الأصوات فقال: (ويحدث هذا الاختلاف في الكلمة المشتملة على التضعيف، بأن يتغير الصوتان المضعفان إلى صوت لين طويل، أي واو المد أو ياء المد أو ألف المد أو إلى أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين، وهي المسماة بالأصوات المائعة: اللام و النون و الميم و الراء). [46]

نستشف مما سبق أن علماء الأصوات القدامى والمحدثين يجعلون المخالفة مختصة بأصوات العلة والأصوات المائعة والسبب في ذلك يرجع إلى التقارب بينهما في الصفة والمخرج، وهذا التقارب يعود إلى الناحية الفسيولوجية للأصوات؛ فالأصوات المائعة واللينة تشترك في اتساع مجرى الهواء اشتراكا نسبيا يختلف من صوت إلى آخر، وصفات الجهر الرخاوة والشدة و الانفتاح والاستفال.

والمخالفة مردها حالات نفسية يتبعها تشابه صوتي في نظر المستشرق الألماني برجشتراسر؛ إذ يقول: (أما التخالف، فالعله فيه نفسية، نظيرة الخطأ في النطق، فإنا نرى الناس كثيرا ما يخطئون في النطق، ويلفظون بشيء غير الذي أرادوه، وأكثر ما يكون هذا إذا تتابعت حروف شبيهة بعضها ببعض؛ لأن النفس يوجد فيها قبل النطق بكلمة تصور الحركات اللازمة على ترتيبها، يصعب عليها إعادة تصور بعينة بعد حصوله بمدة قصيرة ، ومن هذا ينشأ الخطأ إذا أسرع الإنسان في نطق جملة محتوية على كلمات تتكرر وتتابع فيها حروف متشابهة). [47]

فالتتابع الصوتي المتشابه أو المتجانس في اللفظة أو الألفاظ المركبة في سياق معين يؤدي في أثناء التواصل اللغوي السريع إلى الخطأ التلفظي نظرا لتقارب المخارج أو الصفات وبالتالي يضطرب اللسان فيصدر الانسان بعض ما لم يكن يتوقعه من أصوات وألفاظ غريبة عن اللغة .

أما د/ إبراهيم أنيس فعدها نوعا من التطور الصوتي الذي يعرض لبعض أصوات اللغة فينقلب الصوت إلى أقرب الأصوات إليه مخرجا وصفة[48] وذلك نظرا إلى ما يحتاج إليه المتماثلان من جهد عضلي معتبر للنطق باللفظة وعليه يقتضي الأمر إلى عملية تسهيل النطق وذلك بقلب أحد الصوتين إلى صوت أقل كلفة عضلية ، كأصوات اللين وأشباهها.

وهذا ما يقابل نتائج نظرية السهولة إلى نادى بها كثير من القدماء والمحدثين، و فحواها أن الإنسان يميل بطبعه إلى تلمس الأصوات السهلة التي لا تحتاج إلى جهد عضلي، لذلك فبمرور الزمن تتحول الأصوات ذات الكلفة العضوية إلى أصوات أخرى أقل سهولة وكلفة عضوية، فتصبح متداولة ومستعملة استعمالا كبيرا في الوسط الاجتماعي، وذات دلالة لغوية.

وبنا على ما سبق بسطه من اشكالات فكرية فالمخالفة نوعان، مخالفة منفصلة وأخرى متصلة كما حددها برجشتراسر. [49] وهي على النحو التالي :

أولا: مخالفة متصلة:

وسماه مجمع اللغة العربية بمصر تغاير المجاورة Contact dissimilation[50] ويعني – وفق أمثلته – زيادة صوت أو صوتين من الأصوات المائعة إلى اللفظة المبدوءة بأحد الأصوات الشديدة في نحو: دبوس التي أصبحت بعد ذلك دنبوس، كما دلت عليه لهجة الأندلس فيما سبق[51] بزيادة النون المغنونة المائعة المجهورة المستفلة المنفتحة لكسر الثقل الناتج عن تجاور صوتين مجهورين، ألا وهما الدال والباء، فكان النطق باللفظة بأقل جهد عضلي وباستراحة نَفَسِيَّة معتبرة، ولكن هذا لا ينطبق على كل الأمثلة؛ لأن في الأمثلة ما يخالف ذلك في نحو: غس و انغس، التي تجاور فيها صوتان الغين المجهور والسين المهموس وكلاهما رخو، فأضافوا للفظة همزة وصل ونون مغنونة لأجل جعل اللفظة أكثرا نَفَسًا وراحة مما كانت عليه، فبدا لهم النطق باللفظة " انغس " أخف وأسهل من النطق بها على صورتها الأصلية " غس".

ثانيـــا: مخالفة منفصلة:

وهو ما يطلق عليه مصطلح تغاير المباعدة Distant dissimilation ويحدث فيما بين صوته فارق كالحاصل في اخضوضر التي أصلها اخضرضر فأبدلت الراء الأولى واو.52

فالملاحظ في أمثلة هذا النوع يلاحظ أن أصل اللفظة هو الذي فرض على المتكلم تغيير صوت بصوت آخر لأجل تحقيق السهولة واليسر في النطق بأقل جهد عضلي، " فاخضرضر " مكلفة عضويا حيث اجتمع فيها

صوتان متجاوران ومكرران الضاد اللسانية الأسنانية اللثوية الجانبية المجهور الرخو المستعلي المطبق، فبتركيبتها الفسيولوجية يتبن أنها مكلفة كلفة عضوية حقا، والراء اللسانية اللثوية المكررة المجهور المستفل المنفتح المائع، التي يبدو من تركيبه الفسيولوجية أنه أقل جهدا عضليا من الضاد، غير أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، وإنما يتجاوزه إلى التجاور في المخرج مما صعب عملية التلفظ بها، فغيروا الراء المائع الأولى واوا لينا منفتحا مخرجه من أقصى اللسان واسع المجرى و مستعلي كالضاد وبعيدة عنها مخرجا، وهذا لآجل كسر الثقل الحاصل في اللفظة فأصبحت " اخصوضر " سهلة المنال.

مع الملاحظة أن هذا الشرط لا ينطبق على كل حالة من حالات المخالفة المنفصلة، بل أن هناك أمثلة أخرى تزاد فيها أصوات كنحو: الجب: الجواب؛ بمعنى القطع، حيث زيدت الواو والألف الليينين، وأمثلة أخرى يُغير فيها صوت بصوت آخر لأجل تسهيل النطق كما حدث في لفظة: بغداد و بغدان، فتغير الدال الشديد الثاني نونا مائع ، فانتهى النطق بصوت أكثر ليونة من الدال، فمال الناطق إلى الأسهل والأيسر في نطقه .

خاتمـــة:

نستشف مما سبق ذكره أن أصوات الصفير بمستفلها ومنفتحها ومستعليها ومطبقها تتبادل فيما بينها وفق قانون التأثر الصوتي التخلفي، الذي يعتمد بالدرجة الأولى على التحليل فسيولوجية الذي يهدف بدوره إلى إبراز العلاقات الصوتية الدقيقة بين الأصوات اللغوية المختلفة من المخارج والصفات، هذا من جهة ومن جهة أخرى تحقيق التآلف و الانسجام الصوتي

للصورة الصوتية المفردة والمركبة تركيبا لغويا معينا وذلك بأقل جهد عضلي.

في حين لوحظ أن التأثر الصوتي التخلفي لا يقتصر على الصوامت الصفيرية دون غيرها بل يمكن وقوعه في صوائت أخرى كالخاء والغين وغيرهما من الصوائت، ولا يكون مقتصرا على الفصيح من الكلام بل وُجدت آثاره في اللهجات القديمة كلهجة الأندلس واللهجات المعاصرة على اختلافها، واللغات الهندية أروبية[53].

كما لوحظ من الاقتباسات السابقة، أن البحث الصوتي عند العرب القدامى لم يكن بمنأى عن فهم ظاهرة المخالفة، وإن كان تحليلهم لها لا يصل إلى المستوى نفسه الذي بلغته مباحث الدرس الصوتي الحديث، غير أنها كان لها الدور الفعال في إرساء قواعد وقوانين ومصطلحات هذه الظاهرة مع الاكتفاء بتقديم المثال العربي وشرحه وتحليل أسباب وجوده بصورة دون أخرى، ولكن يجب أن تؤخذ هذه المباحث بعين عصرها، لأننا نضع في الاعتبار استفادة الدرس الصوتي الحديث من المفاهيم اللغوية الأوروبية، و تطور الدراسات الصوتية الحديثة بفضل الاعتماد على وسائل تجريبية علمية دقيقة. فكان قدماء العلماء و متأخريهم يحددون أنماطها ويصفون سلوكها ويجمعونها تحت مصطلحات ومفاهيم صوتية معينة، ويحاولون أن يجدوا لها مصطلحا يشملها ويعبر عنها جملة وتفصيلا فكان لديهم ما عرف بالتأثير والتأثر الصوتي الهادف إلى الاستخفاف الذي هو طلب الخفة للجهد العضلي سواء باللين أو القهر أو الإذلال ، وبذلك فرض الواقع اللغوي جملة من عوامل النطق المتفقة مع الصيغ اللفظية المتداولة، من أجل التخلص من تركيبها الناشز، واستبداله بما يناسبه من دقة لفظية دون الإخلال بالدلالات المعنوية.

المصـــادر والمراجـــع:

1 ــ لسان العرب، ابن منظور مادة (م ث ل) دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر 1388هـــ ــ 1968م.

2 ــ المنصف لابن جني تحقيق إبراهيم مصطفى ــ ط/1 سنة 1954 م . 328/2.

3- دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر دار الكتب ط3، 1405هـــ - 1980م ص 324.

4ــ الأصوات اللغوية، د. عبد القادر عبد الجليل دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان الأردن ط1 1418هـــ ــ 1998م ص 283.

5- An outline of English phonetics-Daniel Jones- W Heffer Sons LTD Cambridge Enhlend 9Th 1972، p21

6ــ الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام محمد هارون الهيئة المصرية للكتاب بمصر سنة 1973 م - 477/4

7- المصدر نفسه 477./4

8 - المصدر نفسه 104/4.

9 - المصدر نفسه 4/ 477 - 478 .

10 - المصدر نفسه 4/ 480 .

11 - الخصائص تحقيق محمد علي النجار دار الهدى للطباعة للنشر بيروت بدون تاريخ 2/ 139 ــ 140

12 - مجلة حوليات الجامعة التونسية - عدد بالمصطلحات اللغوية الحديثة - العدد 17 سنة 1977 ص/75 .

13- انظر الأصوات اللغوية د/ ابراهيم أنيس مكتبة الأنجلو مصرية- ط/5 سنة 1979 م ــ ص/ 188

14- انظر التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه د/ رمضان عبدالتواب مطبعة البابلي الحلبي مصر ط/ 1 سنة 1965 م ص/ 22

15- في البحث الصوتي عند العرب د/ خليل إبراهيم العطية منشورات دار الجاحظ للنشر بغداد سنة 1983 م ص / .75

16- التطور النحوي للغة العربية العربية لبرجستراسر ترجمة د/ رمضان عبد التواب دار الرفاعي بالرياض سنة 1402 ه - 1982 م ص/ 28 .

17- انظر مدخل إلى علم علم اللغة د/ محمود فهمي حجازي دار الثقافة للطباعة والنشر بمصر ط/2 سنة 1978 م ص/ 48 - 51 .

18 ــ لحن العامة في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة د/ عبد العزيز مطر ص /251، وانظر مجلة حوليات الجامعة التونسية العدد 17 سنة 1977 ص/ .30

19 - انظر الخصائص لابن جني 141/2.

20 ــ انظر التطور النحوي ص/ 29

21 انظر الكتاب 117/3

22 ــ المصدر نفسه 177/3

23 - انظر المنصف لابن جني 324./2

24 - المصدر نفسه 2/ 330 .

25 - انظر المصدر نفسه 230/2.

26 - انظر مثلا لحن العامة في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة د/ عبد العزيز مطر ص/ 20 وحوليات الجامعة التونسية العدد 17 سنة 77 ص/ 20

27 - انظر الكتاب لسيبويه 477./4

28 - انظر الخصائص لابن جني 144/2 .

29 - انظر لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ــ دار المعارف بمصر - ط/2 - 1401 ه - 1981 م. ص/ 20 وحوليات الجامعة التونسية ص/ 34.

30 - التطور النحوي للبرجستراسر ص/ .30

31 - التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه د/ رمضان عبدالتواب / 34.

32 - الخصائص لابن جني 2/ 144 .

33 - انظر انظر شرح الملوكي في التصريف لابن يعيش تحقيق د/ فخر الدين قباوة طبعة المكتبة العربية لحلب الطبعة الأولى سنة 1393 ه - 1973م /.451

34 - انظر الكتاب سيبويه 424/4

35 - انظر المصدر نفسه 393./4

36- انظر ما تلحن فيه العامة للكسائي تحقيق د/ رمضان عبد التواب دار الرفاعي بالرياض ط/1 سنة 1403 ه - 1982 م /.116

37- الابدال لابن السكيت تحقيق د/ حسن محمد محمد شرف الهيئة العامة لشؤن المطابع الأميرية القاهرة سنة 1398 ه - 1978م /133.

38- المقتضب للمبرد تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة عالم الكتب بيروت دون تاريخ 245/1.

39 الأمالي لأبي علي القالي دار الكتب العلمية بيروت ط/2 سنة 1981م 220/2-221.

40- لحن العامة للزبيدي تحقيق د/ عبد العزيز مطر دار المعار بمصر سنة 1981م /57.

41- الخصائص لابن جني 88/2-91.

42- شرح المفصل ــ لابن يعيش مكتبة عالم الكتب بيروت دون تاريخ 153./10

43- اللغة ــ لجوزيف فندريس ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص مكتبة الأنجلو المصرية سنة 1950 م /94.

44 - التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه د/ رمضان عبد التواب /22.

45- انظر المرجع نفسه /37.

46- لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة د/عبد العزيز مطر /259.

47- التطور النحوي برجشتراسر /34

48 - انظر الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس /210.

49 - انظر التطور النحوي لبرجشتراسر /34.

50 - انظر المرجع نفسه /34.

51 - انظر لحن العامة للزبيدي ص/ 57 .

52 - انظر المرجع نفسه /34.

53 - انظر اللغة لفندريس ص/94 و 95 .